اللحن الأخير

وقفتْ وفي قلبها يموج الألم، وفي عينيها تتراقص الدّموع.. وقفت على شفا جرف هارٍ.. تعزف لحناً حزيناً...

وخيّم الليل، فتردّد صدى صوته.. إنه اللحن الأخير.

ألا يا نفسُ إنْ ضاقتْ حياةٌ ... فذاك الموتُ أرحب ما يكونُ
وقد ولّى زمانٌ كنتِ فيه ... تمنَّين المنونَ ولا تحينُ
قفي بعض الوقوف على طلولٍ ... عفتْ آثارها، وخلا القطينُ
أصيخي السمعَ: هل في الكون قبر ... بأضيق من حياةٍ قد تهونُ ؟!
وذاك أبو العلاء فما التجني ... على أبنائنا إلا جنونُ[1]
قفي ولتعزفي لحناً أخيراً ... هنا ولتدفنَ الماضي السنونُ

أجلْ قد كان يوماً في حياتي ... كبعض الناس للدنيا حنينُ
وأفراحٌ وأتراحٌ ولكنْ ... فؤادي رهن أحزاني سجينُ
وقد غنّيتُ للآمال دهراً ... فلم يُجدِ الغناء ولا اللحونُ
وللأحزان لكني أراها ... تطاوَلُ رغم ما تبكي العيونُ
فيا نفسي سأكسر عنكِ قيداً ... وأغلالاً قستْ، قد لا تلينُ

(١) إشارة إلى بيت أبي العلاء الذي أوصى بأن يكتب على قبره:

هذا جناه أبي عليَّ ... وما جنيت على أحد

قفي ولتعزفي لحناً أخيراً هنا ولتدفنِ الماضي السنونُ

وداعاً سوف أمضي لا أبالي بكى أم لم يُرِقْ دمعاً حزينُ
سيفتح قبري الجبّار حِضناً سأسكنه فيغمرني السكونُ
سكوناً لم أجده بقرب صحبي وحبُّ الناس بطلانٌ ومَينُ
كرهت الناسَ كلّ الناس حتى بدا لي حُبّهم فعلا يَشينُ
فيا دهري: وداعاً لا اشتياقاً ويا نفسي: غدٌ قد لا يكونُ
قفي ولتعزفي لحناً أخيراً هنا ولتدفنِ الماضي السنونُ

ومَرّتْ ليلةٌ سوداءُ لكن بدا في الأفق نورٌ لا يَبينُ
أَنُورَ الفجرِ لا تُقبِلْ فقلبي قتومٌ، في الثرى ألِمٌ دفينُ
فزاد النور في الأفق انتشاراً ورددت الفيافي والحزونُ
ألا يا نفس إن ضاقت حياةٌ فباب الله أرحب ما يكونُ